في الأدب العربي

العوامل المؤثرة في الأدب

٢

ومن العوامل المؤثرة في الادب الأديان وما يتصل بها من الأخلاق والمعتقدات ، وتأثير الأديان في الأدب أمر ثابت بأدلة الطبع والسمع فانها تخلق موضوعات جديدة لمصنفات جديدة . وتؤثر في الأخلاق والعواطف تأثيراً يتردد صداه في مناحي الأدب . على أن تأثيرها الذي يعنينا الآن هو إيجادها لأنواع خاصة من النظم والنثر . فان بني الانسان منذ أفزعتهم تهاويل الطبيعة وأدهشتهم تعاجيب الفلك أحسوا بقوة القوى فألهوها كما فعل اليونان والهنود ، أو نسبوا الأعاجيب المتعة الحيرة لمبدأ والتهاويل المفزعة الشريرة الى مبدأ آخر كما فعل الايرانيون الأقدمون . ثم امتلأت نفوسهم بجلالها وجمالها وعظمتها فاضت على ألسنتهم بالأناشيد والصلوات . فكان من ذلك الشعر الديني وهو مبدأ كل شعر في كل أمة . ومن أقدمه أناشيد (رع) عند المصريين ، وأناشيد (فيدا) عند الهنود البرهميين ، وأناشيد (جالا) عند الايرانيين ، وأناشيد (أرفيه) عند اليونانيين ، وسفر أيوب عند العرب

وعندي أن الشعر للعربي لم ينشأ في الصحراء على ظهور الابل ، وإنما نشأ كذلك في المعابد العربية أبان انفصال العرب عن الأسرة السامية الأولى ، فظهر على ألسنة الكهان باسم السجع ومن أقدمه سفر أيوب على أرجح الآراء . وربما عدت الى بسط هذا الرأي في فرصة أخرى

وتأثير الأديان في الآداب غير متحد ولا متشابه لاختلاف العقول في إدراك هذه القوة الخفية . فاليونان قد عبدوا آلهتهم وجسدوها على صور البشر ، ونسبوا اليها ما للانسان من كرم ولؤم وغضب وحلم وخرب وسلم ونجدة ودعارة وزواج ولدة ، ولم يميزوهم من الناس الا بالقوة والخلود . لذلك كان شعرهم الديني في الآلهة أشبه بشعرهم الدنيوي في الملوك : يصف الخوارق والعظائم والقوة ، ولا يبعد عن رحمة الخالق وخشوع المخلوق . ولا يدل على الرجاء الذي يبعث على الطاعة ، ولا على الخوف الذي يردع عن المعصية .

أما بنو اسرائيل فقد وحدوا الله ونزهوه عن النقص ، ونزهوه عن المثل وملأوا صدورهم بهيبته وعزته وجلاله . فكان شعرهم في ذاته العلية فياضاً بالتقديس والاجلال والابتهال والاتكال والبكاء والرجاء والخوف . كذلك يختلف تأثير الدين الواحد في الأدب باختلاف الأزمان والبلدان وطبقات الناس ونظام الحكم ، فان في كل دين من الأديان السماوية قسما وجدانيا اجتهاديا يختلف اباؤه في فهمه اختلافهم في الطبائع والمنازع والغاية . فاشعار الخوارج مثلا تتصبغ بالدماء وتطفح بالحماسة لتعصبهم وتصلبهم وجعلهم غاية الاسلام جهاد مخالفيهم في الرأي . واشعار الشيعة تفيض باجلال زوج البتول وصهر الرسول وتمجيد ذكرى بنيه وتمثيل آلامهم . ورثاء من قتل من اعلامهم . وأشعار الصوفيين تصف مقاماتهم وتذكر اشاراتهم وتكثر من الكناية بالخمر والسكر والعشق والعبق عن شدة تعلقهم بالله . ولا يقتصر تأثير الأديان على النظم وانما يؤثر كذلك في النثر ، فلولاها لما كانت النبوءات عند الاسرائيليين ، ولا التعازي عند الفرس ، ولا خطب المنابر ومقامات الوعظ عند المسلمين والمسيحيين .

ومنها : العلوم النظرية والتجريبية . وتأثيرها العام في ترقية العقل وتقوية الشعور وتنمية الصور لا يحتاج الى تمثيل ولا تدليل ، ولكن لها تأثيراً خاصاً في خلق أنواع طريفة من الآداب كالشعر التعليمي مثلا وهو نوع من الشعر يجمع بين رشاقة اللفظ ولطف التخيل وجودة الوصف ودقة البحث وحقائق العلم . وتراه في الآداب الأجنبية القديمة والحديثة أرفع وامتع منه في الآداب العربية ، فان من الفضاضة على الفن والاساءة إلى الذوق أن تدخل فيه منظومة ابن عبدربه في التاريخ ، وألفية ابن مالك في النحو . وقد استحدث اليونان في النثر المحاورات الفلسفية كمحاورات أفلاطون . وهي نوع طريف من الأدب الأغريقي قلده شيشرون في محاوراته في الأخلاق والفلسفة والبلاغة . كذلك احدث انتشار العلوم نوعا من القصص الخيالية تمتزج فيها حقائق العلم بروعة

الخيال وغرابة الحوادث تخفيفا لرأى من الآراء أو تشويقا لعلم من العلوم كما فعل الفرنسيان فلاماريون الفلكى وجول فيرن Verne القصصى . وكما صنع من قبلهما أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل الأندلسى فى رسالة حى بن يقظان ، فقد أراد بوضع هذه القصة أن يشرح كيف يستطيع الانسان بمجرد عقله أن يخرج من المحسوسات الملموسة الى أسمى النظريات العلمية . ولكنه بعجز عن ادراك أرقى الحقائق بغير وحى من الله أو هداية من نبى . ثم كان من بعض العلوم التاريخية فى صدر القرن التاسع عشر . وميل الجمهور الى دراسة الماضى ، أن ظهر فى انجلترا القصص التاريخى . ابتدعه الكاتب الانجليزى (ولترسكوت) وانتقل الى فرنسا (الفريد دفنى) فى رواية خمسمارس . وفى المانيا (جورج ايبرز) فى قصته المصرية وردد . وفى مصر جرجى زيدان فى رواياته الاسلامية . وللعلوم فضل ظاهر على اللغة فى المادة والاسلوب . وأثر قوى فى ترقية النثر خاصة لأنها تكسبه القوة والدقة والوضوح . وما ارتقى النثر فى أمة من الأمم الا بعد تقدمها فى الحضارة ورقيها فى العلم . لأن النثر لغة العقل كما أن الشعر لغة الخيال . فالنثر اليونانى لم يرق الا بعد عصر هوميروس بأربعة قرون حين دون تاريخ توسيديد ومحاورات افلاطون وخطب ديمستين . والنثر العربى لم يرق الا أوائل الدولة العباسية على يدى المقفع . والنثر الفرنسى لم يرق الا بتأثير الفلاسفة والرياضيين فى القرنين السابع عشر والسابع عشر كديكارت وديكارت .

ومن تلك العوامل أحوال السياسة الداخلية فان لمدها وجزرها . ولانتقاض حلها أو اتساق أمرها . أثراً بالغا فى فنون الآداب يختلف باختلاف حاله

ففى خلافة معاوية مثلا انتشر الحجاء المقذع فى العراق . وفاضت بحور الغزل الرقيق فى الحجاز ، وعلة ذلك الأسياسة هذا الخليفة . فقد كان يخشى العراق على عرشه الواهى الدعائم . فساسه بالتفريق واحياء العصبية واذكاء التنافس بين الشعراء والقبائل ليشغل الناس عن الخصومة فى خلافته بالخصومة فى أمر جرير والفرزدق والاخطل . وكان يستوحش من ناحية الحجاز فاعتقل شباب الهاشميين فى مدينه . وسلط عليهم الترف وشغلهم بالمال وخلى بينهم وبين الفراغ فعكفوا على اللهو والصبابة والغزل . وبعد خلافة المتوكل العباسى ازدهر الأدب العربى وازداد ابتكارا وانتشارا وكثرة . وعلة ذلك السياسة أيضا . فان الخلافة العباسية قد انتقض حبلها فى أواخر عهد المأمون وانصدع شملها فى عهد المتوكل باستقلال الولاة فى فارس والشام ومصر والمغرب . فكان ضعف السياسة قوة للأدب لأن الشعراء والادباء والعلماء بعد ان كانوا مكدسين فى بغداد لا يبرحون عنها تفرقوا فى الممالك الجديدة فوجدوا من أمرائها وأجوائها ما ساعدهم على وفرة الانتاج ورفع شأن الأدب . وللأحوال السياسية كذلك أثر فى خلق فنون جديدة من الأدب أو ترقية ما كان منها . ومثل ذلك النوع الذى يسميه الفرنج بالخطابة السياسية كالخطب الرائعة التى ألقاها ديمستين فى مجالس اليونان العامة حين كان فيليب ملك مقدونيا يتربص بحرية أثينا وسلامتها ريب المنون . وكتلك التى ألقاها شيشرون فى مجالس الاعيان دفاعا عن شئون الجمهورية الرومانية . وقد نفق هذا النوع فى مصر الحديثة على لسان الزعيمين الكبيرين مصطفى باشا كامل وسعد باشا زغلول . وهذا الفن وليد الحرية السياسية والحياة الديمقراطية والانظمة الدستورية . فاذا منيت الشعوب بالاستعباد أو طغيان الاستبداد تلاشى وانقرض ، كما تلاشى فى اليونان حينما وقعوا فى العبودية . وانقرض عند الرومان حين قدحهم طغيان القياصرة . وهناك الشعر السياسى أيضا كالشعر الذى كانت تصطخم الاحزاب والفرق فى صدر الدولة الاسلامية . ومن ذا الذى ينسى فيضان بحور الشعر وطغيانها فى بغداد ودمشق حين أعلن الدستور العثمانى ؟ لقد كان الظلام ضاربا على العيون ، والجهل غالبا على الافئدة ، والجمود مستوليا على العواطف . وقوى العرب المنتجة معطلة . وأياديهم العاملة معتلة . فكان اعلان الدستور بسمة الامل فى ثغر اليأس ، وومضة المنارة فى بحر مكفهر الجو بالضباب مضطرب الموج بالعواصف . فاهتزت النفوس وانطلقت الألسن وصدحت البلابل تنعى الليل وتبشر العيون بالصباح .

كذلك من هذه العوامل اختلاط الاجناس المختلفة العقليات والعادات والاعتقادات بالمصاهرة والمجاورة فى أمة واحدة . وأثر هذا العامل أظهر ما يكون فى دولتى العباسيين فى بغداد ودولة الامويين فى قرطبة . فان حضارتيهما نتيجة اختلاط شعوب مختلفة لكل شعب منها خصائص ومزايا أكملت نقص الآخر وساعدته على العمل والانتاج ففى البلدين اتصلت المدنية السامية بالمدنية الآرية فالتقى التصور العميق بالتصوير القوى ، والعقلية العلمية بالوجدان الشعرى . وكان من أثر هذا اللقاح فى الفكر والعقل ما يعلل لنا وفرة المعانى الجديدة فى شعر بشار وأبى نواس وأبى العتاهية وابن الرومى . ولولا هذا اللقاح المخصب العجيب لظل الأدب العربى ظامئ الجذوع دقيق الفروع ذابل الاوراق واحد المذاق قليل الثمر .

ومنها التقليد والاحتذاء . والتقليد فطرى فى الانسان

لا يستطيع بدونه ان يتكلم ولا ان يتعلم ولا يملك لنفسه اكتساب عادة ولا تربية خلق . ولولا الاحتذاء لما كانت فنون الآداب . لان الشعر والنثر انما يصاغان على قواعد وأساليب خاصة . ومراعاة هذه القواعد والاساليب الاقتداء الاديب بمن سبقه سواء أكان اقتداؤه مقصودا منه أم غريزيا فيه

على أن التقليد الذى نقصد اليه هنا هو تقليد أمة لأخرى لشدة ارتباطها بها . أو لاعتقادها السمو فى آدابها . وقد أشرت منذ هنيهة الى مثال من ذلك وهو ظهور القصص التاريخية فى انجلترا وانتقالها الى الأمم الأخرى بالاحتذاء . ولقد كان للتقليد فى الآداب القديمة شأن نابه وأثر ظاهر . فالشعر اللاتينى فى عصر أغسطس عاف أساليبه الفطرية وأوزانه القديمة . واغترف من بحور الشعر اليونانى فحاكاه فى أوزانه وأنواعه ومعانيه . والأدب الفرنسى قبل (رونسار) و (مالهرب) كان حائراً بين اللاتينية والاغريقية . والتمثيل انما نشأ بدينا فى كنائس رومية وباريس أثناء القرون الوسطة لتمثيل صلب المسيح وآلام الشهداء الذين أوذوا وقتلوا فى سبيل المسيحية على نحو مايفعل القرس من تمثيل ما أصاب أهل البيت من الخطوب والاضطهاد والمحن . ثم انتشر التمثيل بالتقليد فى سائر الأمم . ولما حييت الآداب اليونانية واللاتينية واطلع أدباء الغرب على ماصنف فيهما من الروايات التمثيلية تهافتوا على تقليدها واقتباسها فدخل فن التمثيل من جراء ذلك فى طور جديد . ولو شاء الله لأدبنا الكمال من نقصه لأمر المترجمين فى عصر المأمون أن ينقلوا روائع الأدبين الاغريقى واللاتينى من الشعر والقصص والروايات والخطب والملاحم كما نقلوا العلم والحكمة . إذن لقلدهم أدباء العرب فى ذلك ولسدوا فى الأدب العربى خللا ما يزيه منه حتى اليوم . إنما استفاد الأدب العربى من التقليد فى فن الحكايات والأمثال حين ترجم ابن المقفع وبعض الكتاب شيئاً من القصص الفارسى ككليلة ودمنة وهزار افسانه ودارا والصنم الذهب . فكان ماترجموه حديا للعرب ونموذجا لهم فى وضع ماوضعوه منها .

أما الأدب الفارسى والأدب التركى فهما صنيعة التقليد ونفحة من نفحات الأدب العربى . فان الفرس حينما استولى الأسلام على أفئدتهم ولغته على ألسنتهم ظلوا زهاء قرنين يقرضون الشعر بالعربية دون الفارسية . فلما هبوا فى القرن الثالث يسترجعون مجد أجدادهم . ويطاردون العربية ونفوذها من بلادهم . ويرجعون الى شعرائهم من أمثال الدقيقى والفردوسى أن يجددوا مفاخر الأسلاف بتأليف المنظومات القصصية والاناشيد القومية لم يجدوا ذلك ميسوراً إلا باحتذاء الشعر العربى واقتباس أوزانه وبديعه وكذلك فعلوا فى النثر فقد أخذوا يوشونه منذ أوائل القرن الخامس برشيق الألفاظ وغريب المجاز وزخرف البديع اقتداء بما نثر فى أقاليم العجم الشمالية الشرقية من الكتب التاريخية العربية التى كتبت بالسجع الموشق ككتاب السمى الذى الفه أبو نصر العتبى للسلطان محمود الغزنوى

وأما الأتراك العثمانيون فانهم حين أخذوا يدونون أشعارهم فى أوائل القرن الثامن اقتبسوا من الفرس بعض الأوزان العربية مبتدأ لأوزانهم القديمة . ولكنهم ابتداء من القرن التاسع أغفلوا أوزانهم واصطنعوا العروض الفارسى فجروا على مناهجه وفنونه . وظل الأدب التركى صورة من الأدب الفارسى يترسم خطاه ويردد صداه حتى منتصف القرن الماضى حين عب الوزير ضيا باشا المتوفى سنة ١٢٩٥ للهجرة يقوض دعائم الشعر القديم وينعى على الشعراء مافيه من جمود وقصور ورق . فانضوى اليه رهط من الشعراء المجددين ككمال بكن وأكرم بك وناجى افندى فانقذوا أدبهم من سخف التقليد . وقووه بالابتكار والتجديد . هذا مثل من التقليد العاجز الذليل الأعمى . أما التقليد البصير القوى المستقل فهو الذى يهذب أدبنا اليوم ويتمم نقصه . فالاقصوصة والقصة والرواية . والاسلوب المهذب والفن التمثيلى . كل أولئك قد أخذ بفضل تقليد الفرنج ينبت فى حقوله . ويضيف فصولا خالدة على فصوله .

هذه هى أقوى العوامل التى تؤثر فى الآداب على اختلاف لغاتها . وهى تعمل أما مجتمعة وأما منفردة . والواجب على مؤرخ الآداب أن يحلل ماتركب من أفعالها المتنوعة كما يحلل العالم بالميكانيكا القوة الناتجة ثم يردها الى القوى البسيطة الفاعلة . وهيهات أن يقف الأديب على هذه العوامل مالم يمكن المؤرخ فى عونه . ولا يتسنى للمؤرخ أدراك كنهها الا بالاستقصاء البالغ والبحث الشديد فى أحوال الشعب الذى يدرسه ويؤرخه . وكل تعليل لأطوار الأدب وظواهره قبل دراسة هذه العوامل ضرب من التخرص لايطمئن عليه القلب .

فى الصيف

للدكتور طه حسين

يبيعه شباب القرش لفائدة مشروعهم

اطلبه من جمعية القرش ٤٥ شارع عابدين تليفون ٥٧٢١٦

ثمن النسخة ١٠ قروش وللجملة ثمن خاص